قبل أن تقرأ

توفيق الحكيم
بقلم توفيق الحكيم *

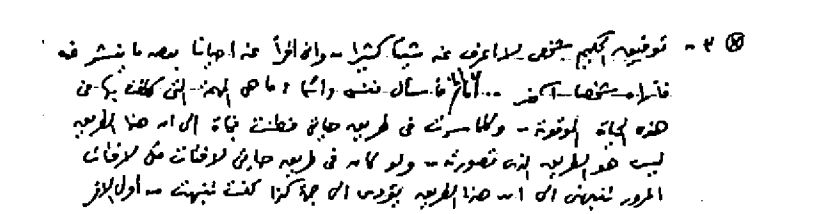

(*) سطور من إحدى الصفحات التى كتبها توفيق الحكيم بخط يده إجابة على أسئلة المؤلف التى أعدها له بتاريخ ٦ / ٩ / ١٩٨٦ ، يقول فيها الحكيم عن نفسه : توفيق الحكيم شخص لا أعرف عنه شيئًا كثيرًا .. وإنى اقرأ عنه أحيانًا بعض ما ينشر عنه فأراه شخصًا آخر .. أما أنا فأسأل نفسى دائمًا : ما هى المهمة التى كلفت بها فى هذه الحياة الموقوتة .. وكلما سرت فى طريق حياتى فطنت فجأة إلى أن هذا الطريق ليس هو الطريق الذى تصورته .. ولو كان فى طريق حياتى لافتات مثل لافتات المرور تنبهنى إلى أن هذا الطريق يؤدى إلى جهة كذا كنت تنبهت من أول الأمر ولم أواصل السير .. فأنا إذن مخلوق ضحية عدم وجود لافتات مرور فى شارع حياتى الطويل ... » .

تقديم(*)
نجيب محفوظ

عندما عرفت الأستاذ توفيق الحكيم فى قهوة « ريتز » التى كان يفضل الجلوس فيها أمام البنك الأهلى ، لم يفصلنى عنه إلا الموت . وعلاقتى بتوفيق الحكيم تمثل فى كتاب العمر إلى جانب الصداقة الأدبية ، الصداقة الشخصية ، وهو يعرف أننى كنت دائما أنوه بأستاذيته الحقيقية ، وكان هو يقدرنى كأديب ويشجعنى ، ولن أتحدث عن توفيق الحكيم الأديب لأن الدنيا تكلمت عنه فى الشرق والغرب ، ولكننى سأتكلم عنه من الناحية الإنسانية والمواقف الجديرة بالاحترام ، كتشجيعه للشباب وإستماعه لهم ، أو زيارته لمعارضهم ، وتشجيعه للفنانين ، فضلا عن مواقفه فى اللجان والجوائز ، أو وقوفه مع المظلومين ، وأذكر أنه كان سيستقيل من المجلس الأعلى للفنون والآداب بسبب الجو العدائى لترشيح كمال الملاخ لجائزة الدولة .

وكذلك وقف إلى جانب حصول « ألفريد فرج » عليها ولم أكن عضوا فى اللجنة الخاصة بذلك ، فطلب منى أن أكون سنداً له للتغلب على الجو السيئ المعادى لألفريد فرج ، وقمنا بما يشبه مذبحة القلعة لكى ينال الجائزة التى يستحقها بكل جدارة .

(*) هذه المقدمة هى حصيلة حوار أجراه المؤلف مع الأستاذ نجيب محفوظ .

وعندما تبنيت فكرة عودة د . غالى شكرى إلى الأهرام ، وافقنى توفيق الحكيم وكتبنا بذلك مشروع خطاب وقعناه واستجاب إبراهيم نافع إستجابة جميلة ، وبذلك كسب الأهرام ، غالى شكرى .

فتوفيق الحكيم شخص عامر بالعواطف الرقيقة المهذبة ، روح خفيفة جدا ، وصافية جدا ، والجلوس معه متعة من متع الحياة الدنيا التى لا يُشبع منها ، فهو محدث لبق وغنى بالذكريات سواء ذكريات الصبا والطفولة مع والده أو والدته ، أو ذكرياته مع أسرته ، أو ذكرياته فى القاهرة مع خطوات الفن الأولى ، وذكريات أوربا عن دراسته الرسمية للقانون ، والدراسة الحقيقية للفن ، ويتخلل ذلك دائما النكت اللطيفة والملاحظات الجميلة .

والغريب الذى يدلك على شخصية توفيق الحكيم ، هو الركن الخاص به فى قهوة « بترو » ، لأنه يجمع أناسا لا يمكن لإنسان أن يتعايش معهم دفعة واحدة ، لأنهم مختلفون جداً ، ما بين باشوات من أعماق العهد الماضى ، وشباب عهد حديث لايزال يبزغ ، وناس فى سنى ، وآخرين من عمره ، وهؤلاء على قدر ما يختلفون مع بعضهم يلتقون فى توفيق الحكيم على أحسن وئام ، فهو يعامل كل واحد منهم المعاملة المناسبة ، كأنه طبيب بشرى !

ثم إن هناك أشياء اشتهر بها توفيق الحكيم مثل بخله وعدائه للمرأة ، وهذه أمور تستطيع أن تسميها شعارات وجد فيها الحكيم نوعا من الفن ، وهو يتمسك بها على هذا الأساس ، أما فى الواقع ، فهو لم يكن عدواً للمرأة بل كان من أكبر أنصارها ومحبيها ، ثم وهو يظهر البخل فى أشياء صغيرة ، فإنها كانت دائما تثير فكاهة عميقة ، وعندما تأتى لواقع الحياة تجد أنه أبعد ما يكون عن البخل ، وأنا أذكر أنه قام بتزويج ابنتى زوجته (ناجا ، ونورا) تماما مثل ابنته ، وهذا شىء يندر أن يقوم به إنسان ، ولو

كان بخيلا لم يكن سيزوج حتى ابنته ، وأذكر أنه فى شارعنا كان يوجد رجل « بك » موظف كبير ، وكان بخيلا إلى درجة أنه لم يكن يوافق على زواج ابنته ، حتى هربت وتزوجت ، وبذلك أعفى نفسه من أى التزامات بتجهيزها ، أما توفيق الحكيم فقد كان كريما وأنا أعرف ظروفا فقد فيها ما يعتبر ثروة ضخمة عندما تضربها فى أرقام اليوم ، ولو كان فى مكانه إنسان عادى لهده فقده لأموال ليس مسئولا عن ضياعها ، ولكن توفيق الحكيم تقبل الأمر ببساطة وبفلسفة ، ولذلك يندر أن أكون رأيت شخصية بكرم توفيق الحكيم ، لأنه كرم يخفيه بعكس بعض الناس الذين يتظاهرون بالكرم ، ويحبون أن يعرف الناس أنهم كرماء ، يمكن لظروف الانتخابات والسياسة ، فينفقون أموالا كثيرة ، وينجحون فى إخفاء بخلهم وتقتيرهم ، لكن الذى طبع على الكرم ويخفيه ، هو كريم أصيل لأنه يعمل الكرم للكرم ، لا لكى تقول عليه أنه كريم ، بل يتركك لتقول عليه أنه بخيل . وهكذا كان توفيق الحكيم كريما ، وكان أكرم ما يكون مع أسرته ، مشغولا بأبنائه كأب ، فخورا بالمرحوم – إسماعيل ، ويريد أن يطمئن دائما على زينب ومستقبلها بل حتى على ابنتى زوجته ، ولكنه كان كأديب مشغولا كثيراً بأدبه فيهيأ له أنه ظلم أسرته ، وأن هذا الوقت الذى انشغل فيه بالأدب كان يجب أن يكون من حقهم ، وهذا غير صحيح ، لأن الحكيم رب الأسرة قد أعطاهم حقهم وأكثر . وكان عليه أن يعطى أدبه حقه أيضا ، ولكنه كان يرى أن كل الوقت كان من المفروض أن يكون لأسرته ، ولم يقل بهذا أحد ، لأن أسرته لم تكن ستطيق تفرغه لهم .

وأرى أن أبناءنا نحن الأدباء يجب أن نتركهم لحريتهم إلى حد ما لكى تتكون شخصياتهم ويكبرون ، لأن الحنان الزائد عن حده ينقلب إلى ضده ، وشعور توفيق الحكيم بالتقصير تجاه أسرته كان شعورا مبالغا فيه كثيرا ، والدليل على ذلك أن أفراد أسرته نجحوا فى حياتهم ، وكان

نجاحهم أساسه الحرية وعدم تدخله فى شئونهم بما يعيقهم عن نمو شخصياتهم واعتمادهم على ذواتهم ، لكن الظروف التى – للأسف الشديد – أنهت حياة إسماعيل ، هى ظروف خاصة يمكن أن يقع فيها أى شاب ، وليس لها علاقة إطلاقاً بأن توفيق الحكيم لو تفرغ له وجلس معه أكثر لكان ذلك مؤجلا لنهايته المحتومة .

ولذلك فإن هذا الكتاب الذى يتناول حياة توفيق الحكيم الأسرية من خلال ابنته ، وابنتى زوجته ، وأحفاده ، ومن حوله ، هو تأريخ للجانب الذى يغيب عادة عن المؤرخين لأديب كبير أو لأعظم أديب فى حياتنا ، وهذا يفيد النقد ، والأدب ، والتاريخ ، من خلال المعرفة وإلقاء الأضواء على الجوانب التى قد تغيب عن الإنسان ، بل قد يكون فيها تفسير لكثير من مواقفه الأدبية .

ولا ينبغى أن يكون السؤال ماذا يبقى من توفيق الحكيم ؟ لأننى عندما أنظر إلى مؤلفاته العديدة يكون السؤال :

وما الذى لا يبقى منها ؟ هذا هو السؤال المعقول ، لأنها كلها مرشحة للبقاء ، ولذلك فالفراغ الذى تركه توفيق الحكيم لم يُسد ، ولم يُتعزى عنه .

ولا يبقى إلا أن أشكر المؤلف إبراهيم عبد العزيز الذى جدد ذكرى توفيق الحكيم ، وجعلنى أعيش فى رحابه .